مقدمـــــــة

لم يكن اهتمام المجتمعات العربية بالثقافة إلى وقت قريب، يفلت من النظرة القطاعية التقنية التي تميل إلى لغة الميزانيات و كيفية استهلاكها على حساب المضامين و غايـــات المضـــامين. الثقافة عندما ينظر إليها كقطاع ضمن قطاعات أخرى ترصد لها ميزانيات يجب أن تستهلك قبل نهاية السنة تعكس صورة ثقافة سطحية و متسرعة، يراد لها أن تبقى على الهامش فـــي حـــين تسير الدول و المجتمعات بوتيرة قطاعات أخرى توصف بأنها ذات جدوى و بالتالي هي مربحة.

هذا التصور للثقافة استمد اسباب ظهوره و انتشاره ومن ثم استمراره من التوجه الغالب الذي هيمن على التنمية في المجتمعات العربية لعقود، التنمية القائمة على المتغيرات الاقتصادية.

عندما خبرت المجتمعات العربية هذا النمط من التنمية و أيقنت أنها عجزت عن ضمان التقدم و التطور و إحداث التغيير المنشود، التفتت إلى الثقافة و شرعت العديد منها بجعل الثقافة محورا للتنمية. بالطبع تحسن وضع الثقافة بالمقارنة بما سبق، لكن وتيرة التغيير بقيت بطيئة. التوجـــه هذا أملته الأوضاع الداخلية للمجتمعات العربية، و لكن أملته و بشكل أساسي الظروف العالميـــة التي تتفاعل معها المجتمعات العربية.

أفاقت المجتمعات العربية من غفوتها، فاكتشفت أن المجتمعات الغربية أنهت مشـــروع بنـــاء الإنسان المتشبع بقيمها و حضارتها و هي الآن تجني ثمار هذا البناء الشاق و المضني. إنسان لا يعرف المحال منفذا إليه؛ روح المخاطرة هي أسمى قيمه. يحقق اكتشافات علمية تلو الأخرى و كل إنجاز علمي يدفعه دفعا إلى إنجازات تالية باهرة، الكثير منها غير طبيعة العلاقة بين الإنسان و الإنسان، و الإنسان بالطبيعة.

في هذا الوقت، لم تستطع المجتمعات العربية، و بما تمثله الثقافة التقليدية من ثقل و حضور مؤثر في فضاءها، حسم أمورها مع الدين و الهوية و الخصوصية و القبلية و العشائرية... أمور أنهكتها و شغلتها عن طرح الأسئلة الجوهرية التي يجب ان تطرح في الزمن المناســـب، و إن تأخر طرحها أو ألغي طرحها، اهتزت أركان المجتمعات الغافلة و المتجاهلة و تلكم هي حالـــة المجتمعات العربية.

أيقنت المجتمعات العربية ــ و نكاد نقول بعد فوات الأوان ــ أنها لا تملك من خيار تواجه به المد العولمي الجامح، غير خيار الاستثمار في الإنسان باعتباره كائنا ثقافيا. هذا الخيار شرع في تنفيذه و لكن بصورة عرجاء ممكن أن تتحسن مع الوقت.

لم تعد الثقافة ترتبط بالمهرجانات و المعارض و الملتقيات التي تنظم في قاعات مغلقة ــ و هذا لا يزال ساريا وله غاياته و جمهوره ــ بل أصبحت تتجسد أيضا في قضايا لها تأثير مباشر على الإنسان العربي. ارتفعت وتيرة الترجمة، و معدلات إنتاج الكتاب، وارتفع عدد عناوين الجرائد و المجلات باختلاف طبيعتها...كل هذا يؤشر لإرهاصات تنتاب الفضاء الثقافي العربي في العقدين الأخيرين. لازم هذه الإرهاصات بروز سياسات تعليمية جديدة، و الشروع في إصلاحات حقيقية للمنظومات التربوية و للمنظومات الجامعية. هذه الجهود كلها و بالرغم من ضخامتها تبقى دون ما هو مرغوب، و لا يزال عدم الاستقرار و التململ و تذبذب المخرجات سمة ما ينجز من أنشطة. في هذا السياق تعالت أصوات و ترسخت مواقف اجتمعت حول حتمية التغيير الهادف. منهم من سمى ذلك بالإصلاح و منهم من سماه تطويرا و منهم من سماه تجديدا. ومنه، ظهرت اطروحات تدافع عن التجديد الثقافي كخيار استراتيجي يضع الثقافة في قلب التنمية و لا يضعها خارجها.

ساهم المثقفون و المفكرون العرب في هذا التوجه من خلال أعمالهم الفكرية أو مؤسسات خاصة تهتم بمشاريع التجديد الثقافي، أو من خلال جهود جماعية. من جهتها، استحدثت الحكومات مجالس متنوعة ترعى قضايا التجديد، سواء ما تعلق منها باللغة العربية أو ما تعلق بالترجمة، أو ما تعلق بالطفل. ..

دراسة قضايا التجديد الثقافي اتاح لنا الوقوف على أوجه التداخل بين جوانب عدة، السياسية و الاقتصادية و التربوية و القيمية و التنموية، تكاملا و تنافرا، و هذا ما حاولت الفصول النظرية تبيانه. و من جهتها اهتمت الفصول الميدانية بالأمور التفصيلية المرتبطة بالقضايا الجزئية من التجديد الثقافي. و تجدر الإشارة إلى أننا خصصنا القسم الثاني من هذه المقدمة لعرض مجموعة من التنويهات هي عصارة نقدنا الذاتي للدراسة المنجزة.

- **تنويهات منهجية و نظرية:**

يعمد الباحث عادة في المقدمة إلى عرض مضامين الأطروحة مبينا تمفصلات القضايا المدروسة بطريقة منهجية لا تستجيب دوما إلى منطق الترتيب الذي يبرز في التقرير النهائي للأطروحة. الباحث في عرضه هذا، و في اعتقادنا، إنما يمارس حقه في تحريك نسق من المسوغات يوظفه لتبرير و تفسير الناتج النهائي الذي ظهرت من خلاله الأطروحة كعمل نظري و منهجي متكامل. المقدمة بهذا المعنى تسوغ لعمل بحثي حاضر و منجز و مكتوب في شكل تقرير يخضع للتقييم الخارجي. لكن و بالمقابل، الباحث باهتمامه المفرط بالعمل المنجز، يتحاشى الاهتمام و الانشغال و لو بالإيحاء، بالبديل الآخر للعمل غير المنجز، بالأطروحة الثانية التي كان بالإمكان إنجازها لولا المعوقات المرتبطة بالاستعدادات الفكرية و الإمكانيات المادية و الضغوط المتعلقة بالآجال. الباحث في اعتقادنا لما ينهي عمله و يقدمه على شكل تقرير مكتوب، إنما يعترف بعجزه أو إخفاقه بإنجاز نفس العمل بتوجهات بحثية مختلفة و بمنهجية مغايرة و بمقاربات نظرية ربما أكثر صلابة. إذن، و على ضوء ما تقدم أعلاه، محور " تنويهات منهجية و نظرية" يؤكد أن أطروحة " استراتيجية التجديد الثقافي في المجتمعات العربية في ظل العولمة" في شكلها النهائي، أي التقرير المكتوب، أتاحت للباحث بعد إخضاعها لنقد داخلي،باكتشاف الوجه الآخر للأطروحة الغائبة و التي تمنى الباحث حضورها أو عجز عن استحضارها أو تغافل عنها.

يستجمع المحور التالي جملة من القضايا المنهجية و النظرية يقترحها الباحث بغاية تفسير دلالات القضايا الحاضرة في الأطروحة و من خلالها يفسر غياب قضايا أخرى. و هذه التنويهات في مجملها تقترح البديل الآخر للأطروحة المنجزة.

أولا: تنويهات منهجية:

1- تنويهات مرتبطة بعنوان الأطروحة.

- قد يلام الباحث بشدة على صفة العمومية المفرطة التي يتسم بها العنوان نظرا لجمعه بين عدد من المفاهيم معروف عنها عموميتها العالية: الإستراتيجية – التجديد الثقافي – المجتمعات العربية – العولمة.

من بديهيات البحث العلمي، تلك التي تطالب الباحث باستعمال الفكر في المواضيع العامة بغاية تفكيكها إلى مواضيع فرعية و جزئية يمكن التعامل معها بحثيا بصورة أفضل.

على ضوء هذه الملاحظة المنهجية الهامة، و لو أخذت بالحسبان في وقته، لكان بالإمكان التوجه بالأطروحة نحو آفاق أخرى أقل عمومية و أكثر دقة و لتحول العنوان بتغيير القضايا المدروسة. و من المقاربات التي كان بالإمكان الاهتمام بها ما يلي:

- مقاربة تدرس التجديد الثقافي في مجتمع عربي بعينه، و ليكن الجزائر، بعلاقته بالعولمة.
- مقاربة تدرس التجديد الثقافي في مجتمع عربي بعينه و ليكن الجزائر، بعلاقته بإحدى تمظهرات العولمة.
- مقاربة تدرس بعدا من أبعاد التجديد الثقافي في مجتمعين عربيين بعلاقته بإحدى تمظهرات العولمة.

و بذلك تتغير عناوين الأطروحة بتغير القضايا البحثية:

المقاربة الأولى: استراتيجية التجديد الثقافي في الجزائر في ظل العولمة.

المقاربة الثانية: إستراتيجية التجديد الثقافي في الجزائر و نمط المجتمع الافتراضي للإنترنت.

المقاربة الثالثة: نشر الكتاب الفكري و نمط المجتمع الافتراضي للإنترنيت: دراسة مقارنة بين الجزائر و الكويت.

- قد ينقد العنوان أيضا لإدراجه عبارة "شائعة" إن لم تكن أدبية و صحفية و هي عبارة " في ظل...". كان بالإمكان و بسهولة توظيف عبارة أخرى أكثر صدقية مثل" و عصر...". الدراسة أظهرت أن العولمة عند الكثير من المفكرين و الباحثين هي عصر بالرغم من الجدل القائم حول مدة هذا العصر و استمراريته. لكن و بالمقابل، الحضور المكثف لعبارة " في ظل..." في العديد من المقالات الفكرية الجادة و الدراسات الهادفة، هو الذي جعل الباحث يغفل عن إخضاع هذه العبارة للمساءلة المنهجية في حينه.

- يجب التنويه ثالثا، بأن حضور مفهوم الإستراتيجية في عنوان الأطروحة، لا يجعل منها عملا بحثيا يدرج في خانة الدراسات الإستراتيجية. شتان بين الدراسات الإستراتيجية و الدراسات السوسيولوجية التي يوظف فيها مفهوم الإستراتيجية كمفهوم وافد على علم الاجتماع و ليس كمفهوم متأصل فيه.

اهتمت الأطروحة بمفهوم الإستراتيجية على أكثر من صعيد:

- كيف يظهر في الاتجاهات النظرية التي اهتمت بقضايا التجديد الثقافي.
- كيف ترتبط مضامين هذا المفهوم أو تبتعد عن مضامينه الأولى(العسكرية منها و التسييرية).
- ما هي التمظهرات الإيجابية و السلبية المرتبطة بالمفهوم، و علاقته بواقع المجتمعات العربية.

- إجابات بعض المبحوثين حول استمارات البحث أثارت مجددا الجدل القائم حول مفهوم المجتمع العربي. هناك من يعترف بوجوده كوحدة أيديولوجية فحسب و ينكر وجوده كوحدة معرفية. البعض الآخر يميز بين استعمال المفهوم في حالة المفرد " المجتمع العربي" و استعماله في حالة الجمع " المجتمعات العربية" و لكل مبرراته. أما الأطروحة فقد تذبذبت بين الصيغة المفردة و الجمع لأن الاستعمالين يتيحان تقييم تجربة كل مجتمع مع التجديد الثقافي و حاولت من جهة أخرى الوقوف على إمكانية التأسيس لإستراتيجية عربية موحدة للتجديد الثقافي. و على ضوء هذا التوضيح يمكن فهم ظهور المفهوم في صيغة الجمع في عنوان الأطروحة وظهوره بالصيغتين في استمارة البحث.

- عنوان الأطروحة لا يتضمن عناصر ترسم بوضوح الحدود الزمنية التي يغطيها البحث. وجب التدقيق في هذه المسألة لأن العولمة كظاهرة تاريخية قد تعود بالمهتمين و الدارسين إلى قرون ماضية أو قد ترتبط ببروز المفهوم و استعماله المكثف بداية من التسعينات من القرن الماضي، و الاحتمال الثاني هو الحاضر في الأطروحة.

و بذلك فإن عنوان الأطروحة كان بالإمكان أن ينبني على مكونات زمنية لا تترك للتأويل و الشك منفذا.

- اهتمت الأطروحة بالإنتاج الفكري الغزير الذي درس الشأن الثقافي في المجتمعات العربية منذ مطلع التسعينات من القرن الماضي، هذا الإنتاج باختلاف مشاربه حدد مواقف من

عصر يعرف بعصر العولمة و في سياق هذه العلاقة طرحت مسألة التجديد الثقافي. هنا أيضا، من الواضح أن عنوان الأطروحة لا يتضمن مكونات تبرز هذا التوجه البحثي.

و عليه، واستنادا إلى الملاحظة السابقة و الملاحظة التي تلتها، كان من المحتمل أن يكون عنوان الأطروحة على النحو التالي:

- **إستراتيجية التجديد الثقافي في المجتمعات العربية في ظل العولمة: قراءة في الفكر العربي منذ مطلع التسعينات.**

- عنوان الأطروحة بالمفاهيم التي يتضمنها، لا يسمح بموقعة الموضوع في خانة علم الاجتماع التنمية بشكل مباشر و لعل الفصل الذي تناول العلاقة بين الثقافة و التنمية قد تجاوز هذا النقص إذا نظر إليه كنقص يجب تعويضه. و قد نفكر في تعويض مفهوم التجديد الثقافي بمفهوم التنمية الثقافية بحثا عن الاتساق بين العنوان و المضمون، ولكن إن فعلنا أخذت الأطروحة توجها آخر.

2- تنويه مرتبط بقضية التمييز بين الاستنتاجات و النتائج.

خصصت الأطروحة حيزا لعرض جملة من الاستنتاجات توصل إليها الباحث من خلال إنجازه للفصول النظرية و قد ظهرت في التقرير في محور تحديد المفاهيم. قراءة الإنتاج الفكري الذي اهتم بقضايا التجديد الثقافي لا تتيح البتة في اعتقادنا، مهما كانت الجدية في هذه القراءة و مهما كانت الصرامة العلمية موجها رئيسا لهذه القراءة، بالوقوف على قضايا توصف بالنتائج. لكن هذه القراءة التي يستثمر فيها الوقت و الجهد الفكري تتيح الوقوف على قضايا صادقة و موضوعية لكنها لا ترقى إلى مستوى الحقائق الدقيقة و تسمى بالاستنتاجات.

من الواضح أن الاستنتاج يكون أكثر ارتباطا بالمجهود الفكري و النظري، بينما النتيجة تكون أكثر ارتباطا بالعمل المسنود تطبيقيا.

3- تنويه مرتبط بالتساؤل المحوري الموجه للبحث.

تعلمنا و نحن طلبة و علمناه للطلبة و نحن أساتذة أن التساؤل الرئيسي الموجه للبحث يظهر مباشرة عند الانتهاء من صياغة الإشكالية. حقيقة مطلقة غير قابلة للنقاش بالنسبة للكتب التي تدرب على أبجديات المنهجية في إعداد البحوث الاجتماعية. لكن، عندما نقابل التقرير المكتوب و الذي من المفترض أن ينقل بوفاء و صدق الأطوار الواقعية التي يمر بها البحث، مع واقع

البحث، نكتشف بسهولة أن التساؤل المحوري الموجه للبحث يسبق زمنيا التصور الـــذي نبنيـــه حوله بعد ذلك و الذي يحتاج إلى وقت كبير حتى يتبلور. التساؤل الرئيسي يبدأ بلحظة قد نسميها " الشعلة" Etincelle، شعلة تتحول مع الوقت إلى أمر أضخم يرغمنا على إحـــداث ترتيبـــات معينة. التساؤل الرئيسي في مراحله الأولى يشبه برعم النبات أو الجنين و بعد ذلك يتطور مـــع الوقت و بتطوره تتشكل من حوله دوائر الاهتمام المختلفة.

إذن، التساؤل الرئيسي البسيط حينما يتطور هو الذي يؤدي إلى تبلور تصور بحثي لموضوع ما. جلي إذن، الصدام الحاصل بين التقرير و الواقع الذي ينقله التقرير.

تمنت الأطروحة لو ملكت مقدارا من الشجاعة سمح لها بتجاوز الموروث المنهجـــي غيـــر القابل للمساءلة. التقرير لو سمح بذلك، لأبرز التساؤل الرئيسي أولا، مارا بإظهار جـــذور هـــذا التساؤل و بعد ذلك مراحل تطور التساؤل ووصولا إلى مرحلة نضجه، حينئذ فقط، يمكن فهـــم كنه الإشكالية التي صيغ حولها هذا التساؤل.

خانت الشجاعة الأطروحة في أمر ثان حينما أرفقت مع التساؤل الرئيسي علامـــة اســـتفهام، احتراما للموروث المنهجي غير القابل للمساءلة. التجربة تخبرنا بأنه بالإمكـــان التعبيـــر عـــن التساؤل و الاستفهام حتى بالأساليب التقريرية التي لا مكان لها لعلامة الاستفهام ســـواء كـــان الأسلوب شفهيا أم كتابيا. فعندما أواجه أحدهم بقولي: اليوم، ثيابك جميلة ! هل أنا أعبـــر عـــن تعجب فحسب و يجب أن يقرأ قولي بأنه تعجب فحسب، أم أنني عبرت عن استغراب و استفهام و تساؤل مغلف بالتعجب؟ هنا أيضا، تمنت الأطروحة لو ملكت مقدارا من الشجاعة مكنها مـــن تغييب التساؤل المحوري على شكله الاستفهامي و استبدلته بالانشغال البحثي الرئيس الـــذي لا يحتاج إلى علامة استفهام.

4- تنويهات مرتبطة بأسباب اختيار الموضوع.

عادة ما يدرج محور أسباب اختيار الموضوع في مذكرات الليسانس و رسائل الماجستير و أطروحات الدكتوراه، في مكان يتوسط تقريبا الفصل الأول، و هذا يعبر في اعتقادنا، على شكل من أشكال عدم الاتساق بين التقرير المكتوب و الأطوار الواقعية لإنجاز البحث. ما الذي يمنـــع الباحث في كتابة تقرير الأطروحة أن يبدأ بشرح الأسباب و الظروف التي جعلته " يختار" هذا الموضوع البحثي دون غيره؟ الكثير من الأسباب المحيطة باختيار الموضوع، و التي غالبا مـــا توصف بالذاتية، تحدد مصيريا قوة البحث من عدمه. أسباب اختيار الموضوع بهذا المعنى، تقع

داخل البحث كمكون رئيسي لا يمكن الاستغناء عنه، و لا تقع خارج دائرة البحث، تتحول عند البعض إلى مجرد أدوات تزيينية des garnitures .

تمنت الأطروحة لو ملكت مقدارا من الشجاعة مكنها من إدراج أسباب اختيار الموضوع في محطة متقدمة من كتابة التقرير تليها محاور أخرى لا تكون بالضرورة الإشكالية و لكن قد تكون الدراسات السابقة أولا ثم تحديد المفاهيم ثانيا.

5- تنويه مرتبط بالدراسات السابقة و المشابهة.

تفادت الأطروحة تقديم الدراسات السابقة و المشابهة بالطريقة كثيرة الحضور في الأطروحات الجامعية في الجزائر، و اعتمدت طريقة حديثة فرضت نفسها في الجامعات الغربية و في بعض جامعات المشرق العربي التي نقلت التجربة. الطريقة الجديدة تلزم الباحث على الدخول في حوار نقدي مع الدراسات السابقة، يخرجه من موقف الحياد و يفرض عليه تحمل مسؤوليات التصورات التي يحملها حول الموضوع. تدربنا على هذه الطريقة مع الأستاذ على ليلة، أستاذ علم الاجتماع في جامعة عين الشمس، القاهرة، بمناسبة مشاركتنا في دورة رفع الكفاءة العلمية التي نظمها مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية لكلية الآداب، بجامعة القاهرة، في الفترة الممتدة بين 2005/12/10 و 2005/12/19. كما يمكن للباحث أو القارئ العودة مثلا إلى كتاب: الفكاهة و آليات النقد الاجتماعي، تأليف شاكر عبد الحميد و آخرون، منشورات مركز البحوث و الدراسات الاجتماعية، جامعة القاهرة 2004 حتى يقف على هذه الطريقة الحديثة في عرض الدراسات السابقة.

6- تنويهات مرتبطة بتحديد المفاهيم.

- خصصت الأطروحة في الفصل الأول حيزا كبيرا لمحور تحديد المفاهيم و تم تحديدها بطريقة ابتعدت عن تقديمها في تعاريف بسيطة لا تعبر بوضوح عن مضامينها. يجب التمييز بين المفهوم و هو يظهر في سياق تعريف مختصر و بين المفهوم كسياق نظري معقد و متشعب. البحث عن التعاريف المرتبطة بمفاهيم الدراسة عملية سهلة لا تتطلب جهدا كبيرا من الباحث، لكن، بالمقابل محاولة فهم هذه التعاريف في سياقاتها، هو المطلوب من الباحث وهو الأمر الشاق.

إذن، وجب التنويه إلى أن الحيز الكبير الذي يشغله محور تحديد المفاهيم في الأطروحة مرده تفضيل النظر في السياقات التي تسبح فيها مفاهيم الدراسة و التي تفسر مضامين التعاريف، على

التعاريف المختصرة التي بعد ذلك تحتاج إلى تفسير سيكون مفقودا لو كـــان الاعتمـــاد عليـــه فحسب.

- اعتمدت الأطروحة في تحديد المفاهيم على التحديد من الداخل حتى يمكن التمييز بـــين هذه الطريقة و طريقة التحديد من الخارج.

التحديد من الداخل يعني تتبع المفاهيم الرئيسية بما تمثلـــه مـــن معـــاني و دلالات فـــي الاتجاهات النظرية التي اهتمت بقضايا التجديد الثقافي دون أن يخضع الباحث هذه المفاهيم لتقييم يقع خارج هذه الاتجاهات. أما التحديد الخارجي، على أهميته في دراسات أخرى، فلم تعمل بـــه الأطروحة لأنه كان سيؤدي حتما إلى التشعب المفرط غير المجدي. تحديد المفاهيم من الخارج معناه تتبع المفاهيم بما تمثله من معاني و دلالات في التراث السوسيولوجي العام و قد تتجـــاوز عملية التتبع هذه حقل السوسيولوجيا لتغطي حقولا معرفية أخرى، و ثم في مرحلة تاليـــة تتبـــع نفس المفاهيم بعلاقتها بموضوع البحث. تجنبت الأطروحة الطريقة هذه لأنها تشـــجع الإطنـــاب غير الهادف و تطرح إشكالات أكثر مما تحل إشكالات. مثلا، لو عملت الأطروحة بهذه الطريقة لصعب تحديد مفهوم الثقافة وحده في أقل من مائة صفحة، و هذه ليست مبالغة، بـــالنظر إلـــى التعقيد الشديد الحاصل في تحديد هذا المفهوم، ناهيك عن مفاهيم الإستراتيجية، التجديد الثقافي و العولمة.

- دعمت الأطروحة محور تحديد المفاهيم بجملة من الاستنتاجات اشتقها الباحث من الزخم النظري الذي يلف المفاهيم كما هي موظفة في الاتجاهات النظرية قيـــد البحـــث. استحضـــار الاستنتاجات يخرج الباحث من وضعية الواسطة السلبية التي يمثلها بين التـــراث النظـــري و الأطروحة، و يجعله يتحمل قسطا من مسؤولية فهم و توضيح و ترتيـــب القضـــايا المرتبطـــة بالمفاهيم الحاضرة في الأطروحة. الاستنتاج قد يعني في المستوى الأول إعادة صياغة لقضـــايا موجودة أصلا، و لكنه يعني خاصة فهم الباحث لتلك القضايا.

7- تنويه مرتبط بالتساؤلات الفرعية للدراسة.

تظهر التساؤلات الموجهة للبحث أو الفرضيات عادة في رسائل الماجستير أو أطروحات الدكتوراه دون سند منهجي يشرعن ظهور إحداها دون الأخرى أو ظهورهما معا في نفس العمل البحثي. جدل كبير يحوم حول توظيف التساؤلات أو الفرضيات في البحوث الاجتماعية و انتقل هذا الجدل من كتب المنهجية لينتشر في فضاءات مناقشة الرسائل و الأطروحات. أطروحـــة "

التجديد الثقافي في المجتمعات العربية في ظل العولمة " لم يكن بإمكانها أن تفلت من هذا الجدل. طبيعة الموضوع فرضت على الباحث ثلاث خيارات منهجية كان من الحتمي الفصل فيها:

أولا: توظيف التساؤلات كموجهات بحثية.

ثانيا: توظيف الفرضيات كموجهات بحثية.

ثالثا: الجمع بين التساؤلات و الفرضيات.

البحث الذي ينبني حول التساؤلات هو في اعتقادنا بحث يدرس موضوعا لم ينضج التفكير فيه حتى و إن كان هذا الموضوع كثير التداول. الباحث الذي يشتغل بالتساؤلات يشبه ذلك الذي يلج نفقا مظلما و المصباح الذي يحمله لا يضيء إلا مسافة قصيرة. الباحث هنا يتحسس طريقه في الموضوع و كلما تقدم كلما و قف على حقائق يجهلها. الباحث على يقين بأنه في النهاية سيصل إلى مخرج النفق و لكنه بالتأكيد يجهل حيثيات الخروج من النفق.

من جهته الباحث الذي يقرر توظيف الفرضيات، يدرس مواضيع مؤسسة على رصيد معرفي قائم بذاته و معالم منهجية شائعة. ففرضيات البحث مهما خلنا أنها ملك الباحث، هي في الحقيقة فرضيات جاهزة أسهم الكثير في بلورتها و الباحث مطالب في المقام الأول بالعثور عليها بالتنقيب الهادف و المستمر و لن يلام إطلاقا إن وظف هذه الفرضيات من جديد في زمن و بيئة مغايرة عن الزمن و البيئة الذين وظفت فيها تلك الفرضيات في مراحل ماضية.

من الواضح إذن، و على ضوء التبرير أعلاه، أن الجمع بين التساؤلات و الفرضيات في نفس العمل البحثي أمر في اعتقادنا غير مقبول منهجيا. الجمع بينهما يؤشر إلى تردد يعيشه الباحث إزاء تحديد طبيعة بحثه: التساؤلات في البحث تؤشر إلى البحوث الاستطلاعية في الغالب، أما الفرضيات فتؤشر إلى البحوث التجريبية.

و عليه، يمكن التأكيد على الطبيعة الاستطلاعية لأطروحة: " التجديد الثقافي في المجتمعات العربية في ظل العولمة ". و بالتالي حضور التساؤلات بدل الفرضيات يستمد شرعيته من طبيعة الموضوع قيد البحث.

و يجب التنويه من جهة أخرى إلى أن تساؤلات الأطروحة تؤدي وظيفة استكشافية fonction exploratoire و لا ترقى إلى الوظيفة التي تؤديها عادة الفرضيات. وضعت

التساؤلات بغية قراءة الكم الهائل من الإنتاج الفكري العربي الذي اهتم بقضايا التجديد الثقافي منذ مطلع التسعينات من القرن الماضي، و بذلك قد تسمى هذه التساؤلات بموجهات قراءة.

8- تنويه مرتبط باستمارة البحث التطبيقي.

تراوحت مواقف المبحوثين من أسئلة الاستمارة بين الموقف الذي رأى فيها عمومية شديدة و نقص في الدقة(تعليق الباحثة الجزائرية خولة طالب الإبراهيمي) و موقف الباحثين المصريين الذين طالبوا بوضع اختيارات لكل سؤال(و هذا ما قمت به لاحقا) قبل الإجابة عن الأسئلة، و قد تأسف أحد الباحثين المحترمين من أن الاستمارة لم تراع الطريقة الكلاسيكية في بناء أسئلتها، و موقف ثالث تفاعل مع الاستمارة إيجابا و لكنه تعامل مع الأسئلة بطريقة انتقائية، فأجاب على بعضها و تجاهل بعضها(محمد أكلي فراجي باحث جزائري في السوسيولوجيا و محمد أرزقي فراد، مؤرخ جزائري)، و موقف رابع يبين أن المبحوثين استثمروا من الوقت و التفكير حتى يجيبوا عن الأسئلة بكثير من الجدية و الصرامة العلمية(رابح سبع باحث جزائري في السوسيولوجيا، فاطمة الجربوعي، باحثة تونسية تهتم بالقضايا الثقافية، بن صميدة، باحث تونسي يهتم بالدراسات الثقافية المقارنة و اللسانيات، منصف عبد الجليل، باحث من المغرب يهتم بالثقافات المقارنة)، و أخيرا موقف خامس تجاهل الاستمارة و رفض الإجابة عنها(الذين رفضوا الإجابة عن الاستمارة من كبار الباحثين الجزائريين في السوسيولوجيا و احترامي لما يمثلونه يمنعني من ذكر أسماءهم).

على ضوء هذه المواقف الخمسة الرئيسة، يحق للمطلع أن يتساءل: كيف لاستمارة بحث أن تولد مواقف مختلفة، بل تقع على حواف التناقض و التصادم؟

الإجابة بسيطة و واضحة: أسئلة الاستمارة متعبة فكريا و تتطلب من المبحوث اهتماما بالشأن الثقافي و اطلاعا متينا حول قضايا الثقافة في المجتمعات العربية.

هل أخطأت الأطروحة باعتمادها هذا النوع من الاستمارة و بعدم الأخذ بالاستمارة الكلاسيكية التي تبنى حول عدد كبير نسبيا من الأسئلة يتوزع بين الأسئلة ذات الإجابات المتعددة و الأسئلة المفتوحة؟

نميل إلى الإجابة بالنفي على هذا السؤال: الأطروحة تبحث و تدرس في موضوع فكري شائك و معقد، و تحاول رصد مواقف و اتجاهات نظرية حول التجديد الثقافي يجب اكتشافها بكثير من الرزانة و الحذر. فالمعطيات التي تبحث عنها الأطروحة ليست من طبيعة تلك

المعطيات الدقيقة القابلة للتكميم و من ثم تصبح صالحة للتحليل الكيفي. الاستمارة الكلاسيكية بهذا المعطى(معطى الغاية من الاستمارة) لا تتوافق و التوجه البحثي للأطروحة.

من ثم، الأطروحة قصدت و بشكل واع أن تصاغ أسئلة الاستمارة بالشكل الذي صيغت فيه، و قصدت أن تضع المبحوثين في وضعية امتحان، امتحان يكشف كيفية ارتباط المثقفين العرب باختلاف مشاربهم و باختلاف الحقول المعرفية التي يشتغلون فيها، بالثقافة و قضاياها.

الاستمارة بشكلها " الصادم"، سمحت ببروز نتائج بحثية حتى قبل إخضاع نتائجها للتحليل ! الرفض المطلق للاستمارة نتيجة لأنه يفضح المثقفين الذين يتعاطون مع الثقافة كظاهرة مدونة في كتبهم و مقالاتهم و حواراتهم، و يرفضون أو يتقاعسون أو يجهلون حتى أن الثقافة ظاهرة بحثية أيضا.

التفاعل الإيجابي الراقي مع الاستمارة نتيجة بحثية ثانية لأنه يبرز فئة من المثقفين مهمومون بالثقافة سواء ظهرت بوجه التجديد الثقافي أو بأوجه أخرى. هؤلاء يحتاجون دوما إلى مواضيع بحثية تحفزهم باستمرار على التفكير في الثقافة.

الانتقائية التي مارسها بعض المبحوثين بحق أسئلة الاستمارة نتيجة بحثية ثالثة، لأن هذه الانتقائية تؤشر على الانتقائية الأخرى التي يمارسها المثقف بحق الثقافة، فيتعامل مع القضايا التي يعتقد بأنها متاحة و مفهومة و يتجاهل ما يعتقده غامضا و معقدا.

ثانيا: تنويهات نظرية.

1- تنويه مرتبط بالمداخل النظرية الكبرى الخاص بقضايا التجديد.

المهتم بقضايا التجديد و الإصلاح في المجتمعات العربية، يكفيه الرجوع إلى مجموعة من الكتب و الرسائل الجامعية و الأطروحات ليكتشف بأنها تجمع كلها على ضرورة العودة إلى الماضي لفهم قضايا الحاضر. هذا الفكر أصبح يردد أسماء أصبحت مشهورة و مرتبطة بفكرة الإصلاح أو فكرة النهضة، و منها محمد عبده، جمال الدين الأفغاني، محمد إقبال، عبد الحميد بن باديس، أمين الخولي، حسن الترابي....

الأطروحة عندما شرعت في تحسس المسار البحثي المرشح لأن يتوافق و غاياتها البحثية، واجهتها معضلة التعامل مع قضايا الإصلاح و التجديد التي شهدتها المجتمعات العربية و الإسلامية. الأطروحة في مرحلة من مراحل الإنجاز كان عليها التعامل مع الانشغال النظري

التالي: هل تتجه إلى إعادة استنساخ المداخل النظرية الكبرى لقضايا التجديد و الإصـــلاح فـــي المجتمعات العربية و هي كثيرة و معقدة و متداخلة مع بعضها البعض، و من ثم و جب التفكير جديا في كيفية التوفيق بين هذا الرصيد المعرفي التاريخي و بين دراسة وضعت لنفسها حـــدودا زمنية هي فترة التسعينات من القرن الماضي و المرحلة التي تلتها.

و من جهة أخرى، ألا يصادر الاحترام الجاف للحدود الزمنية للأطروحة ــ و قد يعبر عـــن نزعة سوسيولوجية اختزالية sociologisme réductionniste ــ حق البحث في العودة إلى الماضي لأهميته و غناه بمكونات معرفية تسهم بلا شك في فهم ما يختلج المجتمعات العربية من إرهاصات و تجاذبات تبقى مبهمة و غامضة في الوقت الحاضر، لأن محاولة ســـبر غورهـــا، انفصلت و عزلت نفسها عن ذلك الرصيد التاريخي، مع العلم أن المشـــتغلين بالإبســـتومولوجيا ينكرون وجود حقيقة تاريخية صافية من العناصر الماضية، بل بالعكس، كل حقبة هـــي مـــزيج يجمع بين عناصر الماضي و عناصر الحاضر؟

الأطروحة و ضعت شقي المعضلة في الميزان و اختارت أن تتقيد " بالنزعة السوسيولوجية الاختزالية " و " تجاهلت" المداخل النظرية التاريخية بالرغم من أهميتها القصوى. الأطروحـــة ربحت ــ بالتأكيد ــ الكثير جراء احترامها للحدود الزمنية للدراسة وما ارتبط بها من غايـــات بحثية ــ لكنها أيضا خسرت ــ و بالتأكيد ــ الكثير بعدم استحضار التاريخ في دراسة قضـــايا التجديد الثقافي.

2- تنويه مرتبط بفصل نظري خاص بالعولمة.

ترغم " الموضة " معدي رسائل الماجستير و الدكتوراه فـــي الجامعـــات الجزائريـــة علـــى تخصيص فصول نظرية للمفاهيم الرئيسية للدراسة، التقليد الذي ورث و يبقى مصدره المنهجي مجهولا.

ما يثير الاستغراب في القضية و أكثر من أي أمر آخر، هو لجوء الباحثين إلى إنجاز هذه الفصول النظرية الخاصة بهذه المفاهيم كل على حدة، فتظهر و هي "منتفخة " و تأخذ شكل وعاء كبير قد يخزن حتى العناصر الهجينة، فتأتي تلك الفصول غريبة عن بعضها البعض.

الأطروحة على ضوء هذا الشرح المنهجي تفادت أن تخصص فصلا كاملا لمفهوم العولمة، وأذابت كل ما تعلق بالظاهرة في ثنايا البحث، يوجهها في ذلك المبدأ المنهجي الذي ينص علـــى

أن البحث السوسيولوجي يهتم بدراسة العلاقة الكائنة بين المتغيرات، و دراسة تأثير العولمة على التجديد الثقافي تحديدا هو ما يخصنا. و عليه، فإن دراسة التأثير بين المتغيرات، يلزم الباحث على بذل الجهد الضروري لمد الجسور، ليس بين الفصول النظرية فحسب، و لكن بين كل محطات إنجاز الأطروحة. و نتيجة لهذا التصور، لم يتم الاهتمام بالعولمة، مفهوما و ظاهرة، إلا من خلال المكونات التي تتسق و الغايات البحثية، و العمل بغير هذه المقاربة كان كفيلا بإقحام الأطروحة في متاهات نظرية و معرفية قد تحيد بالدراسة عن توجهاتها، بالنظر ــ خاصة ــ إلى الإنتاج الفكري الغزير الذي اهتم بالعولمة عالميا و عربيا.

3- تنويه مرتبط بموقعة موضوع الأطروحة في سياق علم اجتماع التنمية.

أصبح مألوفا في الجامعة الجزائرية أن تنجز رسائل الماجستير و الدكتوراه تتنكر للفرع المعرفي الذي أدرجت في خانته يوم قبول الموضوع البحثي في اللجان و المجالس العلمية التابعة لأقسام علم الاجتماع و للكليات التي تنضوي تحتها هذه الأقسام. نادرة هي البحوث التي تبقى وفية للفرع المعرفي من حيث أنها تستحضر الرصيد المعرفي المرتبط بالفرع من خلال ربط موضوع الرسالة أو الأطروحة بذلك الرصيد.

حاولت أطروحة " التجديد الثقافي في المجتمعات العربية في ظل العولمة " أن تموقع البحث في ظل علم اجتماع التنمية بإبراز الأبعاد التنموية للفعل الثقافي و كذا مسائلة الاتجاهات النظرية المهتمة بقضايا التجديد الثقافي من منطلق النظريات التنموية التي تتعامل مع الثقافة في الوقت الراهن كعمليات تنموية.

تتعاظم أهمية موقعة موضوع الأطروحة في سياق علم اجتماع التنمية بالنظر إلى متغير العولمة الذي يرتبط بمتغير التجديد الثقافي. هذا الإطار المرجعي يسمح بتتبع عمليات التجديد الثقافي و الوقوف على حدود تحول العمليات الفكرية التجديدية إلى عمليات ميدانية مؤثرة تسهم إيجابا في تنمية الثقافة في المجتمعات العربية و التي بدورها تؤثر و تدفع بعجلة التنمية المجتمعية الشاملة بغاية تلبية الحاجات المحلية المختلفة أولا، ومن ثم تدعيم هذه التنمية المجتمعية لمواجهة أو التكيف مع أو الإسهام في الجهد التنموي العالمي في المقام الثاني.

من هذا المنطلق، يمكن أن نعرف طبيعة توجهات التجديد الثقافي في المجتمعات العربية. هل هي توجهات تتحرك على أسس معرفية أكيدة و بالتالي هي توجهات تقود إلى أفعال تنموية مؤثرة أم أنها توجهات شفهية و فكرية تتحدث عن التنمية و هي جاهلة لها و بالتالي تتحول إلى أفعال تؤدي إلى مزيد من التقوقع حول الذات و إلى مزيد من مخاصمة الآخر و نبذه و حـــرق **الجسور معه.**

4- تنويه مرتبط بالفصل الخاص بالقيم.

تحتل القيم حيزا هاما من الإنتاج الفكري العربي الذي اهتم بعلاقة المجتمعات العربية بالعالم الغربي منذ مطلع التسعينات من القرن الماضي باختلاف المشارب الفكرية و باختلاف الفـــروع المعرفية. قسم من هذا الإنتاج الفكري تتبع أسلوبا مباشرا في تناول موضوع القيم و يصل بـــه التحليل إلى حد اقتراح قائمة من القيم تعرف بها المجتمعات العربية و كما يقترح وصفة قيميـــة لمواجهة العولمة تارة ومواجهة العالم الغربي تارة أخرى. أما القسم الآخر فتغيـــب فيـــه القـــيم مفاهيميا لكنها تحضر بقوة مضمونا و المتأمل في القضايا يكتشف ذلـــك بـــالقراءة المتأنيـــة و الهادفة.

لا يخفى على الباحثين العرب أن قضايا الإصلاح و التجديد وما ارتبط بما يسمى بعصـــر النهضة، شحنت دوما بمضامين دينية و أخلاقية ووجودية و كانت القـــيم محـــور تحركهـــا. و بالتالي، فإن الفكر التجديدي للأطروحة لم يفلت من تأثير ذلك الأمر.

الأطروحة بتخصيصها فصلا للقيم إنما تؤكد أولا بأن التجديد يطرح قضايا قيمية سواء من جانب الذين يدافعون عن جدواه أو من جانب الذين يرفضونه أو ينكرون إمكانيـــة حدوثـــه. و الثقافة التي تصبو إلى التجديد تحتاج إلى نسق من القيم يتراوح بين ما هـــو دينـــي و أخلاقـــي وتربوي و مهني و تقني و فني و رياضي...حتى تكون ذات تأثير.

و تؤكد الأطروحة ثانيا، بأن النظر إلى الثقافة كمحور للتنمية هو اعتراف أو ميل أو طموح لاستنهاض المكونات المحلية للمجتمعات و الثقة في قدرتها على إحداث الحركية المطلوبة على جميع المستويات و تكون القيم هي محور هذه الحركية، سواء نظر إلى هذه القيم كمكونات محلية " صرفة " أو كمكونات " مركبة " تجمع بين ما هو محلي و ما هو عالمي.